الشاعر البشبيشي

كلما دار الفكرُ وُزِكَ له العنان تعود الذكرى، ويا لها من ذكرى !

هى ذكرى شقيقى العزيز الراحل، الشاعر محمد أبو الفتح البشبيشى ! مات الأخ الوفىّ ! مات الشاعر ! مات الأديب ! مات الرسّام ! تمهلْ أيها القلم ولا تجزع ! كان أخى زهرة فى روضة الحياة مرعان ما ذبلت ؛ فانطوت سفحته البيضاء، واستوت بين طيات التراب، حيث فارقته روحُه الوثابة للعلا، ذاهبة إلى السماء، لتهدأ فى جوار الرحمن، ولترتل أشعارها العذبة السلسة العميقة الغور والمعنى هناك !

مات شاعرُ الفناء والحزن ! لا تعجب أيها القارىء، فلقد كنا نسمع دائماً من قيثارته، على شبابه ومرح نفسه، نغمة الفناء بادية ظاهرة، كأنما كان يرثى نفسه، ويحسّ بدنوّ ساعته ! وهذه قصيدته « فى ليلة » المنشورة فى (أبولو) يدرك منها القارىء عمقَ فكره، وآماله التى هدّها المرض، وطاف بها نذيرُ الموت، ويعرف منها عمق نظره فى الحياة، وتبرّمه بأرزائها :

يرى ظلاماً شاملاً داجياً ... يضمُّ مَن نام، ومَن لم ينمْ
يرى شباباً ضائعاً خافتاً ... وفيضَ نورٍ قد خطا للعدمْ
يرى شهاباً لامعاً ثاقباً ... وفى فضاء الكون قد ينعدمْ !

وقد يميل بشعره فيعتب على الأرض وأهلها، ويصفهم بالغدر والجحود فيقول :

شكرانهم نكرانهم .. والذى ... قد جعل الهمَّ بقدرِ الهِمَمْ
فذاك أمرُ الأرضِ من يومِها ... وذاك أمرُ الكونِ منذ القدمْ
يَنيه ربُّ العلم فى بؤسها ... ويكتسى الجاهلُ ثوبَ النِّعَمْ

يرحم الله شقيقي ! لقد كانت له أفكارُ الجبابرة مع لطفه ودَعته ، كانت له مواهبُ العظماء مع صغر جسمه ، كان يتمثل في خلقه الهدوء والسكينة ، وينبعث من عينيه الواسعتين تيارٌ عاصفٌ يسحق كلَّ معترض له ، ولكن ! قد سحقه الموت ! فانطفأت شعلة طمح الى المُثُل العليا ، وسُحقت قدمٌ ثابتةٌ كانت تخطو إلى الرفعة في ثبات واتّزان . لا اخال ذا قلبٍ رحيم يقرأ لهذه الأبيات من قصيدة (حينما) في وصف الأرض عن لسان طيفٍ شال به في الفضاء إلا رائياً لشبابه ، ومستمطراً الرحمة على جسده :

هل تريد الأرضُ نوراً شاملاً ؟ حسبها الآن دخانٌ ولهبْ !
أتظنّ النورَ يبدو كاملاً فوق أرض من خداع وكذبْ ؟!
فوقَ أرضٍ لقنتْ فتيتها : «خُنْ أخاك اليوم فالليل اقتربْ !»
وأشاعت بينهم حكمتها : «لك عيش اليوم إن الغد خِبْ !»

وهكذا الى آخرها يصف بقلمه العذب الارضَ وخداعَ من عليها . يصف فيها غدر الأخ لأخيه حباً في المال وجنوناً بالعظمة التي سوف تطوى يوماً من الأيام تحت التراب كما طُوِيَ جثمانه الطاهر الصغير الواسع الفكر .

إن للفقيد آيات رائعة في هذه الناحية من شعره أو مما وقع عليه اختيارُه وتجاوبت معه نفسُه ، كقوله في ترجمة مرثية لشكسبير :

إنّا إلى الأرضِ جميعاً من غنيّ وفقيرْ
لا تخشينّ الآنَ شحماً ملهبهْ
ولا شتاءً ريحُه مضطربهْ
رسالةً أديتها منتخبهْ
وعُدتَ تسعى للأصول المتربهْ
إنا إلى الأرض جميعاً سوف تحوينا القبورْ !

وكانت له جولات في شعر الغزل لها حظ من رقته وظرفه ، مثل قوله :

بين وردِ الربيع في الروضِ أشجى بلبلٌ جاثمٌ يحدّثُ بلبلْ
في وجيبٍ ، ورقةٍ ، وتباعٍ وغرامٍ ، والبدرُ بادٍ يُطلّلْ

فعبيرُ الورودِ فيه ، وفيـه همساتُ الغرام كالخمر يُثْمِلْ !

إلى أن قال :

فتلاقتْ بنا الشفاهُ قليلاً وحديثُ الشفاه جِدٌّ مُطَوَّلْ !

كذلك قال رحمه الله في قصيدةٍ غزليةٍ :

غنّني في الغرام أنتِ ، وغنّى أنتِ في الحب والهوى ترجماني

ترجمي عالياً عن الوجد دوماً أنتِ في الوجد والغرام لساني

أنتِ نورُ الحياهْ

أنتِ رُوحُ النعيمْ !

ما ذا تقول في شاعرٍ جمع بين سموّ الخلق ، وسلاسة الأسلوب ، وعذوبة العبارة وأصالة المعنى ؟

أجل ، ما ذا تقول ؟ وما ذا تؤمل لمثل هذا الشاعر الشاب لو كُتِبَ له طول البقاء ، يرسل أشعاره هنا وهناك في هدوء وسلامة ذوق ؟ ولكن ضاع الأمل ، وانطوى بين صفحات القبور ، وترك عالمنا الصاخب إلى عالم الهدوء ، إلى الراحة الأبدية ، أجل ! ولّت الأحلامُ ، وولّت الليالي التي قضيناها معاً في سرور ، وهنالك سوف يذكرني الشاعر ، سوف يذكر أخاً وفيّاً طالما ابتغى البقاء بجواره ، قريراً بأخوّته ، قريراً بفنه .

لئن تكن الأيام فرّقْنَ بيننا لقد بان محمودٌ .. أخي حين ودّعا !

أخي ! إنه الموت نهاية الكون ، وآفة العمران : الموت حاصدٌ بارعٌ ، رائع الاختيار ، ينتقي من الشباب خياره ، ومن الأزهار جميلها ، يرفرف على الكون بأجنحته المخيفة ويرسل شعاعاً يخترق الكون باحثاً عن صاحب آمال ليحول بينه وبين غايته ، فانا لله ! لقد حقّ للنفس أن تذهب حسرات ، ولكن ماذا عسى يجدي الأسى ؟

أيتها النفسُ أجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا !

وهكذا حال الانسان : طفولةٌ وهي عهد المرح ولكنها قصيرة الأمد ، وشبابٌ سرعان ما يذبل ثم يهوي بين طيات القبور !